

كتاب السياسة

للووزير نظام الملك

للدكتور عبد الوهاب عزام

—

نظام الملك أبو علي الحسن بن اسحاق : وزير السلاجقة من أعظم الوزراء الذين عرفهم تاريخ الإسلام . ووزر للسلطان محمد ألب أرسلان ، ثم لابنه ملكشاه ثلاثين سنة (٤٥٥ - ٤٨٥) هـ . كان أبوه أحد دهاتن طوس ، وذهبت بماله الحاديات فولد نظام الملك في بيت فقير سنة ٤٠٨ . وماتت أمه وهو رضيع . ونشأ نجيباً زكياً فتعلم العربية والفقه وسمع الحديث . وتقلبت به صروف الزمان في أرجاء الأرض ، حتى استقر في بلخ عند أحد عمال داود والد السلطان ألب أرسلان . ثم تولى أعمال ألب أرسلان ووزر له قبل السلطنة . فلما خلف ألب أرسلان عمه طغرل بك دبّر نظام الملك أمور الدولة ، وظهرت كفايته ، وشاع ذكره ؛ فاستقل بسياسة الملك طوال عهد ألب أرسلان وعهد ابنه ملكشاه . وتولى أبنائه ، وكانوا اثني عشر ، المناصب الرفيعة في الدولة . فتتمكن سلطنتهم ، وعظم جاههم ، وانقادت لهم الأمور حتى فاقوا البرامكة في أيامهم .

يقول ابن الأثير :

« كان عالماً جواداً عادلاً حليماً كثير الصفح عن المذنبين طويل الصمت . كان مجلسه عامراً بالقراء والفقهاء ، وأئمة المسلمين ، وأهل الخير والصلاح . أمر ببناء المدارس في سائر الأمصار والبلاد ، وأجرى لها الجرايات العظيمة ، وأملى الحديث بالبلاد ببغداد وغيرها . وكان يقول : إني لست من أهل هذا الشأن ، ولكنني أحب أن أجعل نفسي على قفا نقلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » وما زالت الأمور في تصريفه ، والأحوال مواتية له ، إلى أن قتل سنة ٤٨٥ .

وذلك أنه كان مسافراً مع السلطان ملكشاه من أصفهان إلى بغداد ، فزلا على مقربة من نهاوند . قال ابن الأثير :

« فلما كان بهذا المكان بعد أن فرغ من إقطاره ، وخرج في محفة إلى خيمة حرمة أمه صبي ديلمى في صورة مستحيح

١٢٠٤٢

أومستحيث ، فضربه بسكين كانت معه ، قفضى عليه وهرب ، فمتر بطن خيمة فأدركه . فقتلوه » .

وقد شاع بين الناس أن الملاحدة دبروا لقتله إذ كان يبعثهم وكتب في كتابه سياستنامه فصلاً في بيان مفاسدهم . ويقال إن ملكشاه هو الذي أوحى بقتله وكان قد نقم منه ومن أولاده تمكنهم في عظم المناسب ، وجاههم ، وأوغرت صدره عليهم امرأته تركان خاتون ، وكانت تسمى ليخلف ابنها الطفل محمود أباه على الملك ، وكان نظام الملك يؤثر بركياروق أخا محمود الأكبر . إذ يقال إن جمال الملك بن نظام الملك قتل مسخرة للسلطان كان يحاكي نظام الملك في المجلس السلطاني ، فنقم عليه السلطان وأمر من دس له السم في شربة ققاع

ويروى ابن الأثير أن السلطان أرسل أحد قواده شحنة إلى سرمد وكان يتولى أمورها حينئذ عثمان بن جمال الملك ومفيد نظام الملك . فوقع نزاع بين الشحنة وعثمان فحبسه عثمان ثم أطلقه فذهب إلى السلطان شاكياً ؛ فأرسل السلطان إلى نظام الملك يسأله أنت شريكى أو وزيرى ويذكر استيلاء أبنائه على المناصب وتجاوزهم الحد فلما بلغت الرسالة الوزير الكبير غضب وقال للرسول « قولوا للسلطان إن كنت ما علمت أنى شريكك في الملك فاعلم ، فانك ما نلت هذا الأمر إلا بتديري ورأى . أما يذكر حين قتل أبوه فقامت بتدبير أمره وقمت الخوارج عليه ... فلما قدمت الأمور إليه وجمعت الكلمة عليه وفتح له الأمصار القريبة والبعيدة ، وأطاعه القاصى والدانى ، أقبل يتجنى لى الذنوب ويسمع فى السمايات ا قولوا له عنى إن ثبات تلك القلنسوة معدوق بهذه الدواء^(١) وأن اتفاقهما رباط كل رغبة وسبب كل غنيمة ، ومتى أطبقت هذا زالت تلك^(٢) . »

ومن عجائب الاتفاق أن السلطان مات بعد شهر من قتل الوزير

واضطربت الدولة اضطراباً شديداً

ومهما يقل من أسباب النفور التى وقعت بين السلطان والوزير

فأنا أبعده أن يدبر الملك لقتل وزيره الشيخ الذى كان يشق به ويعتمد عليه ويستصحبه فى حضره وسفره .

(١) ينى أن تاج السلطان مدعوم بدواة الوزير فإذا زالت وزارته زالت السلطنة .

(٢) ابن الأثير حوادث سنة ٤٨٥

الجامعيون يحترّبون

للدكتور زكي مبارك

كان الأسبوع الماضي من الأسابيع الدامية في حياة الجامعة المصرية ، وكان رجعة إلى معارك الصاعدة والبحاروة في الأزهر الشريف ، فاهى الصلات بين القديم والجديد من هذه المناوشات التي تقع في المعاهد العلمية ؟

إن النضال بين الصاعدة والبحاروة من الأزهريين كان رجعة لأحقاد عرفت مصر منذ عهد الفراعين بين سكان الشمال وسكان الجنوب ، وكان لهذا النضال مواسم يذكرها من شهد الحياة الأزهرية قبل أن تخضع للنظام الحديث

فما هو سبب النضال بين كلية الآداب وسائر الكليات ؟ وما الذي قضى بأن يكون للجامعيين تاريخ في العداوة والبغضاء ؟

لقد كانت كلية الآداب منذ نشأتها محفوفة بالرعاية والمطف من جميع المعاهد العالية ، فإ الذي جد من الشؤون حتى تصبح هذه الكلية المحبوبة هدفاً للعداوات ، وحتى تشن عليها الفارة بلا ترفق ولا استبقاء ؟

ما الذي جد في دنيا القلوب حتى تتور الحرب الدموية بين طلبة الآداب وطلبة الحقوق ؟

وكيف جاز أن يصبح الحرم الجامعي مجروح المهية والجلال وفيه تمثال الشهداء في سبيل الوطنية لا في سبيل المنافع الشخصية ؟ كيف جاز أن يحترّب الرفاق في بقعة مسورة بالأزهار والرياحين في مطلع الربيع ؟

وكيف نسي أولئك الشبان أن من الجريمة أن يدنسوا الحرم الجامعي بالأحقاد الشخصية ، وهو بفضل العلم لا يقل قدسية عن المحارب ؟

كيف نسي أولئك الشبان نعمة الله عليهم وهم يفتدون وروحون في رياض تذكر بأرواح الفرائيس ؟

إن الجامعة لها موقع قليل الأمثال في الشرق ، وهي تنتظر من أبنائها أن يكونوا جذوة روحية نضني أقطار الشرق ، نبأى

كتب نظام الملك كتاب السياسة (سياستنامه) قبل موته بسنة واحدة ، وضمنه علمه وتجاربه وآراءه في سياسة الملك وترتيب الدولة ، وإنصاف الرعية ، وقسمه إلى خمسين فصلاً .

والكتاب مقدمة كتبها ناسخ الخزانة السلطانية بين فيها سبب تأليف الكتاب فيما يأتي :

« أمر السلطان السعيد أبو الفتح ملكشاه ابن محمد أمين أمير المؤمنين أنار الله برهانه ، سنة أربع وثمانين وأربعمائة بعض الكبراء والشيوخ والعلماء أن تفكروا في أحوال المملكة وانظروا ماذا من السيئات في عهدنا ، وماذا خفي علينا ، وماذا فعله السلاطين السابقون ولم نفعله ، وأعلمونا به . وكذلك اكتبوا ما تعرفون من سنن الملوك السالفين مما يتعلق بدولة السلاجقة وملكهم ، وأعرضوه علينا لتأمله ونأمر بعد أن يسير كل عمل ديني ودنيوي على قاعدته ، ويوضع كل شيء في موضعه ، وننهي عمالاً يستحسن . فإن الله وهبنا الدنيا وأتم نعمته علينا وقهر أعداءنا فلا ينبغي أن يكون أمر في مملكتنا ناقصاً أو يذهب عمل على غير وجهه أو ينجح علينا شيء . »

« أمر بهذا نظام الملك ، وتاج الملك ، ومجد الملك وطائفة أمثالهم ، فكتب كل ما تيسر له في هذا الشأن وعرضه على السلطان فلم يعجبه إلا ما كتب نظام الملك فقال : كتبت هذه الفصول كما أردت فليس في نفسي عليها مزيد . وقد اتخذت هذا الكتاب إمامي وسأعمل به . »

ويقول نظام الملك في خاتمة الكتاب : « هذا كتاب السياسة . أمر سلطان العالم خادمه أن يكتب في هذا الموضوع فامثل أمره . كتب تسعة وثلاثين فصلاً على عجل ورفتمها إلى السدة العالوية فلقيت قبولاً . وكانت مختصرة فزدت عليها ، وأضفت إلى كل فصل ما يناسبه ، وبينتها بلغة واضحة . وقد سلغته إلى ناسخ الخزانة السلطانية محمد المغربي سنة أربع وثمانين وأربعمائة ونحن على عزيمعة السفر إلى بغداد ، وأمرته أن ينسخه بخط جميل ، فإذا لم يتح لي الرجوع من هذه السفرة قدمه إلى السلطان . »

وسأتكم على الكتاب وأترجم فصوله في المقالات الآتية إن شاء الله .
عبد الوهاب عزام